رفيق العمر محمد دكروب
الأديب العصامي والمثقف الشيوعي العضوي

لعلي لا أبالغ إذا قلت بأن محمد دكروب هو من النماذج الفريدة للأديب العصامي في تاريخ الأدب العربي الحديث. والمقصود هنا بالأديب العصامي في مثال محمد دكروب هو أنه كوّن نفسه بنفسه، من دون أن يكون قد ذهب إلى المدرسة، إلا لعامين فقط في المرحلة الابتدائية. إذ هو إقتحم عالم الأدب من خارج الأبواب المعروفة التي يلجها القادمون إلى هذا العالم الجميل، عالم المواهب والثقافات والإبداع في فروعه وفي ميادينه المختلفة المتنوعة. ذلك أن محمد دكروب بائع الزهور والخبز المتجول، في بدايات حياته، ومساعد والده الفوّال إبراهيم وشريك شقيقه البكر العبد في دكان السمكرية في مدينة صور والمستخدم في دكان لبيع الورق والمغلفات في بيروت في مطالع الخمسينات، كان حريصاً بالفطرة أن يعمل بجهد ودأب وبإرادة فولاذية لكي يتجاوز واقعه الصعب في الاتجاه الذي ينقله إلى عالم آخر مختلف أكثر إرتقاء وأكثر كرامة من عالمه. رأى بوعي متقدم على عمره، وهو في أول شبابه، أن الممر الضروري إلى ذلك العالم الذي كان يسعى إليه هو المعرفة. وكانت وسائطه إلى إمتلاكها المجلات والكتب التي كانت تحفل بها مكتبات المدينة. ولم يلبث أن إكتشف عبر تلك الوسائط تباشير مستقبله الواعد في عالم الأدب قراءة وإبداعاً. في تلك الفترة بالذات في أواخر عام ١٩٤٣ وأوائل عام ١٩٤٤ تعرّفت إلى محمد وإنعقدت بيننا على الفور صداقة حميمة. وصارت لقاءاتنا شبه يومية في دكان السمكرية. في ذلك الدكان بالذات كنا نتداول فيما كنا قد قرأناه في المجلات المصرية التي كانت "الهلال" و"الرسالة" و"الثقافة" الأبرز بينها، ثم إنضمت إليها في عام ١٩٤٦ مجلة "الكاتب المصري". كما كنا نتادول فيما كنا قد قرأناه من كتب لا سيما ما كان يرد إلى مكتبات المدينة من مصر لطه حسين وجرجي زيدان وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ومصطفى لطفي المنفلوطي وآخرين. لكننا إكتشفنا ونحن نمارس تلك الهواية الجميلة في عالم الأدب والمعرفة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة اللذين أدخلا في حياتنا الوعي والتمرد على الواقع القائم في بلداننا وحرّضانا على البحث مبكراً عن مستقبل أفضل لم تكن معالمه واضحة بالنسبة إلينا.

هكذا بدأ محمد دكروب في دكان السمكرية يصبح أديباً بالتدريج في الطريق إلى نجوميته التي تحوّل فيها بأدبه وبسماته الشخصية إلى مدرسة خاصة به حملت إسمه على إمتداد حياته وستظل تذكر به.

إستمرت صداقتنا تتوطد ونحن نجهد لتكوين شخصيتنا الثقافية، كل منا على طريقته وفي مدرسته، هو في دكان السمكرية وأنا في الكلية الجعفرية. وعندما وصلنا إلى مشارف السادسة عشرة من عمرنا جاء إلى مدينة صور وإلى الكلية الجعفرية بالذات الأديب الشاب إنعام الجندي قادماً من بلدة السلمية في سوريا لتعليم مادة الأدب العربي. كان مجيء إنعام الجندي إلى عالمنا، أنا ورفاقي في الكلية الجعفرية ومحمد في دكان السمكرية، أحد الوسائط لإشعال الثورة في وعينا التي كانت تتبلور عناصرها بتأثير من قراءاتنا ومن نقاشاتنا حولها ومن العلاقات التي كنا قد بدأنا ننشأها مع من هم أكبر منا في العمر وفي المعرفة وفي التجربة. كان إنعام بالنسبة إلينا بثقافته الواسعة مصدراً للدمج بين روح التمرد والثورة الكامنين عندنا وبين العقلانية التي كانت راجحة عنده.

لكن الطريف في لقاءاتنا، محمد وأنا وعدداً من أصدقائنا المشتركين في دكان السمكرية، أن المكان لم يكن يتسع إلا للسمكري محمد ولشخص آخر قبالته، هو الزبون المفترض للدكان من حيث المبدأ. وكثيراً ما كنت أحتل ذلك المقعد، فلا يبقى للزبون المفترض قدومه مكان للجلوس. فيبقى واقفاً على الرصيف يجادل السمكري محمد من خارج الدكان في أمر تصليح جهازه. أما باقي مساحة الدكان فكان مخصصاً لبابور الكاز ولأدوات العمل وللأجهزة القادمة من الزبائن للتصليح. وصار جزء من المدخول المفترض تحقيقه في الدكان، وهو هزيل بذاته، يتحوّل مع محمد إلى شراء الكتب والمجلات. وكان ذلك مصدر صراع دائم بينه وبين شقيقه العبد.

لم يكن محمد دكروب إذن خريج مدرسة أو معهد، ولا حامل شهادة من الشهادات التي يحملها الخريجون في أية مرحلة من مراحل الدراسة. كان، بالمعنى الدقيق والحاسم للكلمة، خريج ذلك الدكان بكل أحداثه وإلتباساته، وخريج تلك القراءات وتلك النقاشات، وخريج إجتهاداته الشخصية. فهل كان ذلك هو مصدر الغنى في شخصية محمد دكروب؟

إلا أن تمرد محمد لم يأخذ منحى واحداً. صحيح أنه كان يطمح لأن يكون روائياً. لكن روايته الأولى ظلت مشروعاً لم يكتمل، تماماً مثلما ظل مشروع تحوّلي إلى شاعر مشروعاً فاشلاً بكل معنى الكلمة. والرابح في فشلي هو الشعر بالتأكيد. أما الخاسر في مثال دكروب فهو الرواية. وفي الواقع فإن حياة محمد في الأساس، وبيئته العائلية وتفاصيل حياته والنمط السائد فيها وهمومه وإهتماماته، كانت جميعها تشير منذ البداية إلى أنه كان مشروع قصاص وروائي. وكنت أردد ذلك أمامه. إلا أنه هو وحده الذي كان يستطيع أن يحدد السبب الذي كان يمنعه من متابعة الجهد لكي يصبح قصاصاً وروائياً. لكنه لم يفعل. وإكتفى بأن أعلن ندمه في وقت متأخر. ومعروف أنه كان قد نشر بعض قصصه في المجلات اللبنانية التي كانت مجلة "الطريق" الأولى بينها. وكان محمد،

عندما يتذكر تاريخ بداياته القصصية، يذكر بإعتزاز قصته الأولى "الشارع الطويل". وهي كانت من أجمل القصص الواعدة. وهي تعود تاريخياً إلى أول خمسينات القرن الماضي، أي عندما إنتقل إلى العمل مستخدماً في دكان لبيع الورق والمغلفات في بيروت.

في السنوات الثلاث الأولى لعلاقتي بمحمد دكروب في صور، قبل أن أغادر إلى العراق لمتابعة دراستي، تكوّنت الملامح الأولى لشخصيته والملامح الأولى لشخصيتي. كنا توأمين، بالمعنى الإنساني، رغم أننا كنا نختلف في بعض توجهاتنا الفكرية. ذلك أن عالمه كان أكثر إلتصاقاً بعالم الكتب والمجلات. في حين أن عالمي كان، في المدرسة وعلى هامشها، إلى جانب إهتمامي بالثقافة في المجلات والكتب، أقرب إلى عالم السياسة. كلانا كنا ننتسب إلى من كان يصطلح على تسميتهم بالقوميين العرب في ذلك الحين، أي قبل أن يتأسس بعد ذلك بأعوام حزب سياسي يحمل هذا الإسم. لكننا كنا محاطين بشيوعيين وقوميين سوريين متنافرين متصارعين بالفكر وبالموقف السياسي وصولاً إلى الإشتباك بالأيدي في بعض الأحيان أو في أكثرها. كنا كلينا على صلة صداقة مع العديد من المنتمين إلى الحزبين، كبارهم وصغارهم. وإذا كنا، محمد وأنا، معروفين بتسامحنا، فإن بعض أصدقائنا من الذين كانوا ينتمون مثلنا إلى مدرسة القومية العربية لم يكونوا ميّالين إلى أية مصالحة أو مساومة، لا مع الشيوعيين ولا مع القوميين السوريين. وكان موقفنا ذاك مصدر إستغراب عند البعض، وموضع إعجاب عند البعض الآخر.

في عام ١٩٤٥ إنتهت الحرب العالمية الثانية بسحق الجيوش النازية على يد الحلفاء وبدور أساسي للجيش الأحمر السوفياتي. ومع انتهاء الحرب لم يكن همّنا، محمد وأنا وزملاءنا الآخرون، إلا فلسطين. لم نلتفت كثيراً إلى دلالات ذلك الحدث الكبير في تاريخ العالم، رغم أننا كنا نسخر من بعض أنصار هتلر الذين كانوا يرفضون تصديق إنهياره وإنتحاره. إذ كانوا يرون فيه صديقاً للعرب وحليفاً لهم في صراعهم التاريخي مع اليهود حول فلسطين. في ذلك الحين كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بتشجيع من الدول الغربية، قد أصبحت ظاهرة خطيرة. وبات الخوف من تهويد هذه الأرض العربية وإلغاء هويتها وقتل تاريخها هاجسنا الدائم، نحن شباب تلك الحقبة. فكانت فلسطين بدلالاتها المتعددة، بالنسبة إلى محمد دكروب وإليَّ، الباب الحقيقي الذي دخلنا منه في عالم لم تتضح معالمه عندنا إلا في أواخر الأربعينات وفي مطلع الخمسينات. إذ إندمج الهم الثقافي عند كلينا بالهم السياسي. فأصبحنا نحن الأثنين، يا للمصادفة، مهيئين للدخول، كل منا بطريقته الخاصة مع فارق زمني قصير، في الشيوعية فكراً ومشروعاً سياسياً لتغيير العالم وللتغيير في بلداننا. وكان محمد دكروب، قبل ذلك، قد تطوّع مع عدد من رفاقه في جيش الإنقاذ لتحرير فلسطين. تطوّع في

ذلك الجيش من دون أن يدخل في الحرب التي لم تقع أصلاً! وعاد خائباً. وكان مصيري في العام ذاته في بغداد، التي كنت قد إنتقلت إليها في أواخر عام ١٩٤٧ لمتابعة دراستي فيها، مثل مصير محمد في مدينة صور، لكن في صورة مختلفة. كانت الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ قد إتخذت قرار تقسيم فلسطين بين دولتين عربية ويهودية. وهو القرار الذي عارضته ست دول عربية وخاضت الحرب لمنع تطبيقه في عام ١٩٤٨ إنتهت بهزيمة كبرى أعطيت صفة "النكبة". الخيبة، إذن، واليأس من الأفكار والأدوات السائدة آنذاك هما اللذان قادانا، محمد وأنا، بخطى واثقة في إتجاه الشيوعية، كطريق إعتبرناه أكثر سداداً إلى مستقبل أفضل لبلداننا يتناغم ويتطابق مع أحلامنا ومطامح ثورتنا. وفي حين إنتقلت أنا بقدرة قادر من الثقافة إلى السياسة وولجتها من أبوابها الواسعة، أكمل محمد سيره بثبات في طريق الأدب الملتزم، كناقد أدبي بإسم الواقعية الاشتراكية.

في أواخر الأربعينات تعرّفنا ، دكروب وأنا، بالمراسلة إلى الأديب اللبناني رئيف خوري، عندما كان يحرّر مع مجموعة من الكتاب التقدميين بإسم "أخوان عمر فاخوري" الصفحة الثقافية في جريدة "التلغراف" اللبنانية. أرسل كلّ منا لرئيف نصاً أدبياً نشره في تلك الصفحة الثقافية، وكان ذلك مصدر إعتزاز عند كلينا. وتوطدت علاقتنا مع رئيف خوري فيما بعد عندما إنتقلنا دكروب وأنا إلى بيروت. وفي بيروت، منذ عام ١٩٥٠، ومن دكان بيع الورق والمغلفات الواقع مقابل سينما "كريستال" التاريخية، التي شهدت في عام ١٩٢٥ أول إحتفال علني بعيد أول أيار نظمه حزب الشعب، حزب الشيوعيين، إنتقل محمد دكروب من عالم الدكاكين الحرفية الصغيرة إلى عالم الثقافة الأرحب. وكانت مجلة "الثقافة الوطنية" أول تجربة له في ذلك العالم الجديد الكبير، برفقة صديقه الشهيد حسين مروة وبقيادته، ومعهما حشد من أهل الثقافة كان في مقدمتهم العلامة في الفقه والأدب والتاريخ واللغة الشيخ عبد الله العلايلي والروائي محمد عيتاني والناقد علي سعد والشاعر أحمد أبو سعد والقانونيان حسن عواضة وسرحان سرحان. وصار محمد دكروب، في سنوات قليلة، أديباً معروفاً. صار صاحب القلم الجميل وصاحب الرأي النقدي الذي يحسب له حساب، لا في مجلة "الثقافة الوطنية" وحسب، ولا في مجلة "الطريق" وحسب، بل في عدد لا يحصى من الصحف والمجلات اللبنانية والعربية. صار اسماً لامعاً في عالم الأدب، لا تكاد تخلو مناسبة أدبية من حضوره ومن إسهامه فيها. وكان المؤتمر الأول لإتحاد الكتاب العرب الذي تأسس في عام ١٩٥٤ في دمشق نافذته الاولى إلى علاقات صداقة واسعة وعميقة مع الأدباء في لبنان وسوريا ومصر والعراق والأردن وفلسطين، وفي كل دنيا العرب. وصار مع الأيام، بفعل إجتهاده، مرجعاً في التأريخ لمرحلتيّ الخمسينات والستينات وما بعدهما في عالم الأدب العربي المعاصر.

في أواسط الستينات سافر محمد إلى موسكو للتأهيل السياسي والفكري في المدرسة الأممية، التي كانت قد أنشئت منذ أيام لينين لإعداد الكوادر الحزبية في الأحزاب الشيوعية الفتيّة أساساً، وحتى غير الفتيّة أيضاً. وكنت زميلاً له في تلك المدرسة. كنت أنا المسؤول عن الفريق بصفتي عضواً في قيادة الحزب. وكان محمد واحداً من أعضاء الفريق، وكان "مهضوماً" كعادته خفيف الظل وصاحب الابتسامة التي لا تعرف الهدوء والراحة. وكنا، نحن بعض أصدقائه من أعضاء الفريق، نجتمع حول مائدته الشهية التي كانت تخفف من جفاف وثقل دروس الفلسفة والإقتصاد الماركسيين. فقد كانت تلك الدروس تقدّم لنا بالطريقة السوفياتية الكلاسيكية القديمة. بعد إنتهاء سنة الدراسة في المدرسة الأممية ببضع سنوات عاد محمد من جديد إلى موسكو للعمل الصحفي، ولمتابعة التحصيل العلمي كتبرير للسفر، ولإعداد كتاب عن الأديب اللبناني عمر فاخوري لم ير النور، أسوة بروايته الأولى.

في أول السبعينات عاد محمد إلى لبنان من موسكو، بعد أن كاد يصبح روسياً، مصطحباً معه صديقته القديمة "سفياتا" التي أصبحت زوجته. وكنت قد ذهبت إليه في موسكو لأقنعه بالعودة إلى الوطن وإلى حرفة الأدب التي كانت حرفة حياته، فوافق. وإنخرط من جديد في الحياة الأدبية والفكرية، بعد أن كان قد إنقطع عن هذا العالم لعدة سنوات. وكانت باكورة كتبه كتابه الجميل "جذور السنديانة الحمراء"، الذي أرّخ فيه لمرحلة تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. وصدر الكتاب في عام ١٩٧٤، عام الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب. وللمصادفة فقد كانت باكورة كتبي أنا أيضاً في ذلك التاريخ، كتاباً يحمل عنوان "كيف نواجه الأزمة في حركة التحرر الوطني العربية؟".

وتستمر المصادفات بيني وبين محمد دكروب منذ شبابنا الباكر، الواحدة منها تلو الأخرى. وكأن حياتنا كلها، وصداقتنا كلها، لم تكونا إلا فعل مصادفات. وهل في هذا ما يدعو إلى الاستغراب أو الاستنكار؟ فإذا كانت المصادفات، بهذا المعنى وعلى هذا النحو، فأهلاً بها ألف مرة ومرة! أجمل تلك المصادفات التي حكمت تاريخ علاقتنا، محمد وأنا، تتمثل في إلتقائنا على إعادة إصدار مجلة "الطريق"، في صيغة جديدة وبوظيفة جديدة أكثر إنفتاحاً على الرأي الآخر والفكر الآخر، التي إستمرت من أواخر عام ١٩٩٣ حتى أواخر عام ٢٠٠٣. كان هو رئيس التحرير فيها، وكنت أنا المسؤول السياسي عن إصدارها وعن كل شؤونها. كان هو رئيسي، وكنت أنا مسؤولاً عنه! ورغم أن المجلة أخذت قسطاً مهماً من وقته إلا أنه تابع إصدار كتبه الواحد تلو الآخر. وهي كانت تتمحور حول إلقاء الأضواء على سير وإبداعات عدد من كبار أدبائنا ومفكرينا. وكان أهم تلك الكتب كتاب "وجوه لا تموت". لكن الكتب التي كان يعتبرها الأكثر أهمية بالنسبة إليه من كتبه

السابقة، هي التي شغلته في الأعوام الأخيرة من حياته ولم يتمكن من إنجازها. وهي خمسة كتب كما كان يسرّ لي ولعدد من أصدقائه. وكان يعتبر أن كتاب "على هامش سيرة طه حسين" هو الأهم بينها. لكنه غادر الحياة قبل أن ينجز تلك الكتب.

ظل محمد دكروب على إمتداد حياته لصيقاً بالحزب الشيوعي من دون أن يكون عضواً في أية خلية من خلاياه. وهو بسيرته الأدبية والثقافية والسياسية كان صيغة خاصة به لـ "المثقف العضوي" الذي تحدث عنه غرامشي.

غادرنا محمد دكروب، نحن أصدقاءه ومحبيه، فجأة وبدون إستئذان وقبل الأوان المتخيل للرحيل. غادرنا وغادر عالمه الجميل في ميدان الأدب وفي ميادين الحياة التي كان يحبها والتي كانت تجمعه بكثرة لا تحصى من الأصدقاء، لا سيما النساء، على إمتداد العالم العربي. غادر الحياة وترك للأجيال تراثه الثقافي الغنيّ وسيرته الجميلة، وذكريات خالدة تستقر في وجدان أصدقائه، وحباً وحنيناً إليه يستعصيان على النسيان.

لكنني وأنا أودع رفيق العمر محمد دكروب أتذكر اثنين ممن كانت تربطني ودكروب بهما صداقة حميمة هما الشاعر والناقد الأدبي والرسام الكاريكاتوري رضوان الشهال والقصاص والروائي محمد عيتاني اللذين غابا قبل فترة من الزمن. وكتبت عن كليهما مقالين في كتابي "ملامح الشخصية اللبنانية في سير وإبداعات المثقفين اللبنانيين".